

تفسير ابن كثير

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ

وقوله : (فما بكت عليهم السماء والأرض) أي : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في

أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاء عبدوا الله فيها فقدتهم ؛

فهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم ، وعتوهم وعنادهم . قال الحافظ

أبو يعلى الموصلي في مسنده : حدثنا أحمد بن إسحاق البصري ، حدثنا مكي بن إبراهيم ،

حدثنا موسى بن عبيدة ، حدثني يزيد الرقاشي ، حدثني أنس بن مالك ، عن النبي - صلى

الله عليه وسلم - قال : " ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب

يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكى عليه " وتلا هذه الآية : (فما بكت عليهم

السماء والأرض) وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملا صالحا يبكي عليهم .

ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ، ولا عمل صالح

فتفقدتهم فتبكي عليهم . ورواه ابن أبي حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الربذي . وقال

ابن جرير : حدثني يحيى بن طلحة ، حدثني عيسى بن يونس ، عن صفوان بن عمرو ، عن

شرح بن عبید الحضرمي قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الإسلام بدأ
غريبا وسيعود غريبا . ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه
إلا بكت عليه السماء والأرض " . ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (فما بكت
عليهم السماء والأرض) ثم قال : " إنهما لا يبكيان على الكافر " . وقال ابن أبي حاتم :
حدثنا أحمد بن عمام حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - حدثنا العلاء بن صالح ، عن
المنهال بن عمرو ، عن عباد بن عبد الله قال : سألت رجلا عليا رضي الله عنه : هل تبكي
السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك ، إنه
ليس [من] عبد إلا له مصلى في الأرض ، ومصعد عمله من السماء . وإن آل فرعون لم
يكن لهم عمل صالح في الأرض ، ولا عمل يصعد في السماء ، ثم قرأ علي ، رضي الله
عنه (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) وقال ابن جرير : حدثنا أبو
كريب ، حدثنا طلق بن غنام ، عن زائدة ، عن منصور ، عن منهال ، عن سعيد بن جبير
قال : أتى ابن عباس رجل فقال : يا أبا عباس أرايت قول الله : (فما بكت عليهم السماء
والأرض وما كانوا منظرين) فهل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال : نعم إنه ليس

أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه ، وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه بكى عليه ، وإذا فقد مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه ، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة ، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير ، فلم تبك عليهم السماء والأرض . وروى العوفي ، عن ابن عباس ، نحو هذا . وقال سفيان الثوري ، عن أبي يحيى القتات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] قال : كان يقال : تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحا . وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد . وقال مجاهد أيضا : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحا ، قال : فقلت له : أتبكي الأرض ؟ فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكي على عبد ، كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسيحه فيها دوي كدوي النحل ؟ وقال قتادة : كانوا أهون على الله من أن تبكي عليهم السماء والأرض . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عبد السلام بن عاصم ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا المستورد بن سابق ، عن عبيد المکتب ، عن إبراهيم قال : ما بكت

السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين قلت لعبيد : أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن

؟ قال : ذاك مقامه حيث يصعد عمله . قال : وتدرى ما بكاء السماء ؟ قلت لا قال : تحمر

وتصير وردة كالدهان ، إن يحيى بن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دما . وإن

حسين بن علي لما قتل احمرت السماء . وحدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو غسان محمد

بن عمرو - زنيج - حدثنا جرير ، عن يزيد بن أبي زياد قال : لما قتل حسين بن علي ،

رضي الله عنهما ، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر . قال يزيد : واحمرارها بكاؤها .

وهكذا قال السدي الكبير . وقال عطاء الخراساني : بكاؤها : أن تحمر أطرافها . وذكروا

أيضا في مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عبيط ، وأنه كسفت

الشمس ، واحمر الأفق ، وسقطت حجارة . وفي كل من ذلك نظر ، والظاهر أنه من

سخف الشيعة وكذبهم ، ليعظموا الأمر - ولا شك أنه عظيم - ولكن لم يقع هذا الذي

اختلفوه وكذبوه ، وقد وقع ما هو أعظم من [ذلك] ، قتل الحسين رضي الله عنه ولم

يقع شيء مما ذكروه ، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب ، وهو أفضل منه بالإجماع ولم

يقع [شيء من] ذلك ، وعثمان بن عفان قتل محصورا مظلوما ، ولم يكن شيء من ذلك .

وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قتل في المحراب في صلاة الصبح ، وكان
المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك ، ولم يكن شيء من ذلك . وهذا رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكره .
ويوم مات إبراهيم ابن النبي - صلى الله عليه وسلم - خسفت الشمس فقال الناس : [
الشمس] خسفت لموت إبراهيم ، فصلى بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلاة
الكسوف ، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته .